مجلة منتدى الأستاذ

المجلد: 20 العدد: 01 السنة: ديسمبر 2024 الصفحات 250ـ 266

سرديّة الحلم في رواية «أنا يوسف» لأيمن العتوم

– بين الوعيين الأنثروبولوجي والإيديولوجي –

Narrating the Dream in the Novel "I Am Youssef" by Ayman Al-Atoum: Between Anthropological and Ideological Consciousness

آمنة عنوش[1]،* وسيلة مرباح[2]

[1] *المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصّوف، ميلة (الجزائر)، a.annouche@centre-univ-mila.dz*

مخبر التّراث الأدبي الجزائري الرّسمي والهامشي

[2] *المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصّوف، ميلة (الجزائر)، merbah.wassila@centre-univ-mila.dz*

مخبر الدّراسات النّقدية والأدبيّة

تاريخ الإرسال: 2024/ 04/08 تاريخ القبول: 2024/ 10/06

الكلمات المفتاحية:

الحلم؛

السّرد؛

الثقافة؛

الأنثروبولوجيا؛

الإيديولوجيا؛

الملخص:

تعدّ الأحلام رسائل مشفرة برموز ثقافية أنثروبولوجية، دينية، ذات امتدادات إيديولوجية وثقافية. نحاول في هذه الورقة البحثية فك شفرات الأحلام المسرودة والمستلهمة من واقع تاريخي قدّم الأديب فيه الموروث الدّيني وفق نفس أسطوري متنامي، نبرز من خلاله تجليات الوعيين الأنثروبولوجي والإيديولوجي في خطاب سرد الحلم. وعليه اعتمدنا المزاوجة بين القراءة الثقافية وآليات التّحليل النفسي، فيا ترى كيف يعد الحلم أحد أهم التّجارب الإنسانية المساهمة في بناء الوعي الأنثروبولوجي والأيديولوجي؟ وما هي مجموع الأنساق الثقافية التي كشفها الوعي بالأحلام؟

Keywords:
Dream, narration, culture, anthropology, ideology

ABSTRACT:

Dreams are messages encoded with cultural, anthropological, and religious symbols, and with ideological and cultural extensions. In this research, we attempt to decipher the dreams narrated and inspired by a historical reality in which the writer presented the religious heritage according to a growing mythical soul. Through it, we highlight the manifestations of anthropological and ideological consciousness in the discourse of dream narration. Accordingly, we adopted a combination between cultural reading and the mechanisms of psychoanalysis. So, how is dreaming considered one of the most important human experiences that contribute to anthropological and ideological consciousness? What is the assortment of the cultural patterns revealed by consciousness of dreams?

* آمنة عنوش

مقدمة:

تطورت الرواية المعاصرة لتتحول إلى جنس أدبي يستوعب مواضيع بعمق التاريخ ودهاليز السياسة وقضايا المجتمع، وأسس الدين وعناصر الثقافة. وتعتبر خطوة الأديب **أيمن العتوم**[1] التي سنها في روايته (**أنا يوسف**)، أحد أهم النماذج التي أعاد من خلالها استلهام الموروث الديني بكثير من الخلق والتجديد. إذ تعدّ مغامرة فريدة سطر فيها الحوار وتخيل الأحداث في ضوء هالتها التاريخية، وقدسيتها الفريدة في الديانات الإبراهيمية قاطبة، وفق سياق تخييلي إبداعي؛ ينطلق فيه من النص الديني التاريخي لينزاح عنه نحو آفاق قرائية تأويلية جديدة.

يتناسل السرد التخييلي في المنجز الروائي ليشكل من مشاهد الحلم اليوسفي، ومشاهد أحلام شخوص القصة، لوحات إبداعية استدعى الروائيُّ في بعضها –إضافة للنص القرآني– مرجعيات دينية استوحاها من الشرائع اليهودية، وأخرى حلق فيها إلى عوالم الابتكار والتخييل.

ويعد **الحلم** نسقا سرديّا من مباحث السّرد الميثولوجي؛ والذي يعدّ بدوره أحد الدعائم البانية للوعي الأنثروبولوجي والأيديولوجي كجزء من الخبرة الإنسانية القديمة، وظفه كُتّاب الرواية المعاصرة كنوع من أنواع الهروب النفسي أو الاجتماعي. لكنه اتخذ في رواية (أنا يوسف) مناحي أُخَر. فالحلم في الرواية مستمد من واقع تاريخي استثمر الكاتب فيه الموروث الدّيني بنفس تخييلي، واستطاع أن يبلوره وفق فكره الإبداعي طاقة أسطورية تتنامى فيه مشاهده المقدسة، لتصنع منه أداة تحمل المتلقي إلى امتدادات من الفكر الإيديولوجي المختلف يكشفها خصوصية الخطاب الإبداعي. وعليه فالإشكالية التي يفضي إليها عنوان الدراسة هي: **كيف يعد الحلم أحد أهم التجارب الإنسانية المساهمة في بناء الوعي الأنثروبولوجي والأيديولوجي؟ وما هي مجموع الأنساق الثقافية التي كشفها الوعي بالأحلام؟**

تستدعي الإجابة عن هذه الإشكالية الوقوف عند الأسئلة الفرعية التالية:

1/ كيف استلهم الروائي أيمن العتوم التراث الإنساني القديم مادة لإعادة تأثيث مشاهد الحلم؟

2/ كيف تضافرت المرجعيات الدينية في أسطرة خطاب مشاهد الحلم وتناميها؟ وكيف سطر الوعي الميثولوجي سردية الحلم؟

3/ ما هي أهم الأبعاد الإيديولوجية والأنثروبولوجية التي رسمتها الأحلام في الرواية؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات وجب الوقوف أولا عند **ماهية الحلم**، في محاولة لتحليله من خلال تجارب خبراء الدين واللغة والنفس والاجتماع والثقافة. لنعي بشكل أوضح علاقته بمجال الأنثروبولوجيا وتفاوته بين أيديولوجيات الشعوب المختلفة. ولذلك فيا ترى: ما هو الحلم؟ وما هي أنواعه؟ أ لكلّ حلمٍ معنى؟ ما علاقة الحلم بواقع الشعوب ومعتقداتهم؟ هل استطاع الحلم أن يؤثر على عقلية الأفراد وسلوكاتهم؟ كيف استجابت الشعوب والأمم لتداعيات الحلم؟ وهل أثر فيهم غيب هذه الأحلام؟ هل أدت تفسيرات وتأويلات الأحلام دورها في استشراف المستقبل؟ وعلى أي وتيرة نفسية وثقافية لعبت؟

1) عن الحلم والرؤيا والتأويل:

جاء في لسان العرب لابن منظور في مادة (**حلم**): "الحُلُمُ والحُلْمُ: الرُّؤيَا وَالجَمْعُ أَحْلَام. يُقَالُ حَلَمَ: إِذَا رَأَى وَتَحَلَّم إِذَا ادَّعَى الرُّؤْيَا كَذِباً"[2]. وفي السّياق نفسه يؤكّد الفيروز آبادي في قاموسه المحيط عن معنى الحلم: "وَحَلَمَ بِهِ وعَنْهُ، رَأَى لَهُ رُؤْيَا أَوْ رَآهُ فِي النَّوْمِ"[3]، والرّؤيا عنده "مَا رَأَيْتَهُ فِي مَنَامِكَ، وَجَمْعُهَا رُؤَى"[4].

من خلال ما تقدم نجد أن القدماء لم يفصلوا بين الحُلم والرؤيا، لكن إذا تعمّقنا فيما ذهب إليه ابن منظور، نجد أن تعريفه يحتمل وجهين. **فالحُلم=الرؤيا** ما يكون أثناء النوم فقط. أما (**حَلَمَ =رَأَى**) فيحمل مدلولين:

✓ **الأول:** بمعنى الرؤيا وهي ما يراه النائم في نومه (صدقا أم كذبا) ولا يمكن التحكم فيها. وفي القرآن الكريم ذُكر لفظ الرؤيا مفردة فيما يوافق هذا المدلول، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[5]، وقال أيضا: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[6]، وكذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾[7].

✓ **الثاني:** إن الحلم قد يكون أثناء الصحو؛ أي مجموع ما يراه الرائي من تخيلات وأوهام عند اليقظة، ويمكن التحكم فيها. وهذا ما وافق المعنى الذي تضمّنته الآية في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾[8]. فقد جاء في تفسير ابن كثير لِلَفظ (أَحْلَامُهُمْ) أي: "عُقُولُهُمْ تَأْمُرُهُمْ بِهَذَا"[9].

إذن، **فأحلام اليقظة** (Day dreaming) تختلف في الطبيعة والمصدر عن رؤى **وأحلام النوم** (Dreams)[10]، كونها تنشأ عن العقل، وقد ترتبط بالتفكير والخيال أو حتى المرض. ويؤكد غاستون باشلار في الفرق بينهما أن "الإنسان النائم أو الغافي يكون منفصلا عن وعيه، يعيش حلمه أو يتكبده بصورة غير واعية، بينما يكون الحالم اليقظ... في طبقة تتموقع بين الحلم بالشيء والوعي به"[11].

وقد ورد من السنة النبويّة فيما رواه البخاري قوله صلى الله عليه وسلم: "الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ الله وَالْحُلُمُ مِنَ الشَّيْطَانِ"[12]. وفي هذا الصدد يذكر القاضي بكر بن العربي إن "الرُّؤْيَا إِدْرَاكَاتٌ عَلَّمَهَا الله تَعَالَى فِي قَلْبِ الْعَبْدِ عَلَى يَدِ مَلِكٍ أَوْ شَيْطَانٍ، إمَّا بِأَسْمَائِهَا: أَيْ حَقِيقَتِهَا، وَإِمَّا بِعِبَارَتِهَا، وَإِمَّا تَخْلِيطٌ"[13]. وعليه **فالأحلام رُؤيا** إن كانت في خيرها أو شرها، سواء تحمل حقيقة أو رموزا. وهي **أضغاث أحلام** من الشيطان إن كانت مجرد تخليط أو أحاديث نفسية.

وورد في آيٍ القرآن مفهوم مضاف يجمع بين **الحُلم والعِلْم بالتأْويل**، وأن هناك ضرورة نفسية أكثر منها حتمية في وجوب تأويل وتفسير ما يراه النائم في منامه، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾[14]. وأيضا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾[15]. وقد جاء ذكر الأحاديث مقرونة بفعل التأويل في سورة يوسف، قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾[16]. والأحاديث هي تعبير الرؤيا[17] التي يراها الناس في "منامهم من الرؤى مما تؤول إليه واقعا"[18]، وعليه **فالتأويل** يكون بمفهوم التعبير والتفسير ولا يكون إلا عن علم ودراية بمجموع الرؤى ورموزها، والتي يكون لها معنى ودلالة، أو استشراف للمستقبل[19].

مما سبق نجد أننا:

- يمكن إدراج الرؤيا والحلم في دائرة ما يراه الرائي أو النائم من حسن وقبيح، أو من خير أو شر، إما حقيقة صريحة، أو مرموزة. وإن الحلم قد يكون أضغاث أحلام إذا كان من الشيطان أو حديث نفس.
- للحلم حسب النوم واليقظة شقان، فالأول ينشأ من اللاوعي، في حين أن الثاني يكون عن وعي وإدراك.
- الرؤيا حسب مدلول القرآن لا يختص بها الأنبياء دون العامة، فهي للأنبياء وحي من الله، وجزء من النبوة، وهي استشراف للمستقبل في دوائر خيرها وشرها على حد سواء.
- تأويل الحلم وتفسيره يتطلب علما وفهما للرموز والحقائق التي يتضمنها سياق الحلم الداخلي أو الخارجي.

ويلخص المخطط رقم 01 أدناه أهم ما وصلنا إليه في أوجه ومدلولات الحلم/ الرؤيا.

المخطط رقم 01: أوجه ومدلولات الحلم/ الرؤيا.

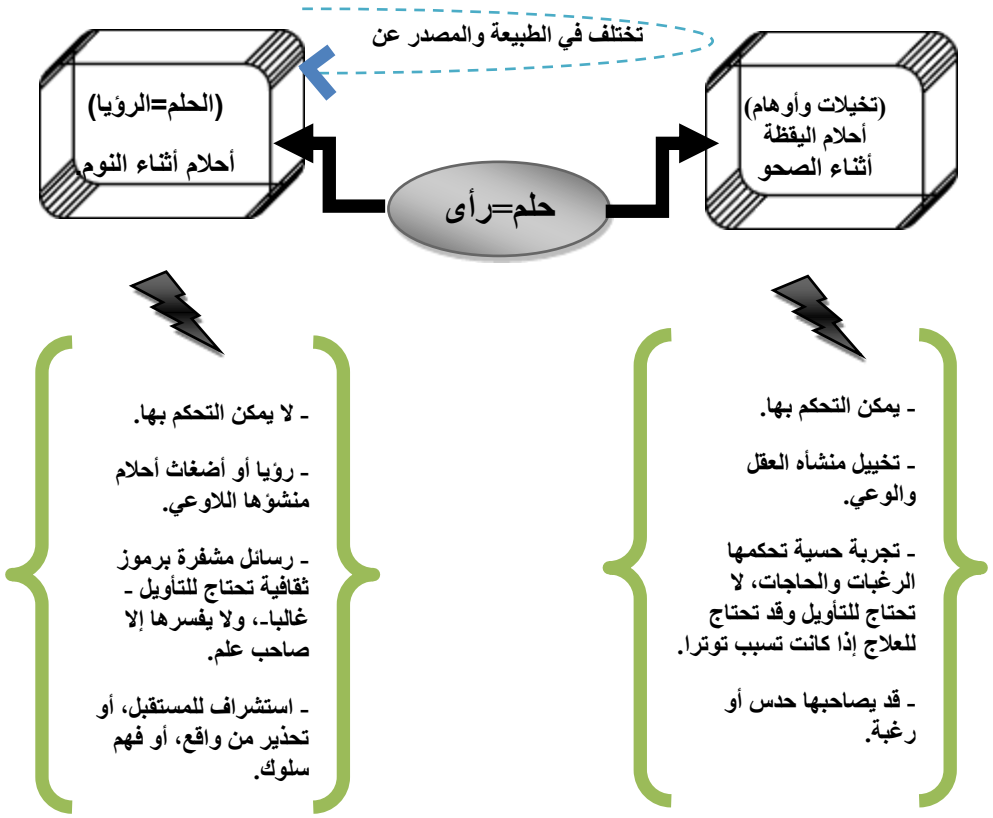

2) تجارب دراسة الأحلام:

لقد سعى الإنسان **لتفسير الأحلام** ومحاولة الإحاطة بها منذ القديم؛ إذ تعتبر ظاهرة غامضة ومعقدة، فهي مجموعة من الصور والأفكار التي تحدث أثناء النوم أو اليقظة، تعكس في غالبها أمنيات أو قلقا، أو تجارب حياتية. ولها تاريخ قديم قدم الإنسان في مراحل حياته البدائية أو الحضارية. وفيما يلي إطلالة نسعى من خلالها إلى إبراز تطورات ومناهج دراسة الأحلام عبر تعاقب العصور، وكيف وظفها العتوم في روايته، من أجل إدراك قيمها كمشاركة فعلية في صناعة الوعيين الأنثروبولوجي والإيديولوجي.

لقد اهتمت الشعوب والأمم السالفة بموضوع الأحلام وكانت لها تجارب سبقية في محاولةٍ لتفسير كنه هذه الظاهرة الإنسانية. فبداية بالحضارات القديمة مثل السومرية والمصرية والبابلية، ومرورا بالحضارات الكلاسيكية من أمثال اليونانيين والرومان، والعصور الوسطى (عند الغرب)، وعصور ازدهار الدولة الإسلامية، وصولا إلى العصر الحديث والمعاصر؛ نجد تطورا على مستوى أدوات التفسير والتأويل، وسنكتفي بثلاث تجارب إنسانية تعتبر ثورة في حقل دراسة الأحلام وتفسيرها.

أ/ تجربة يوسف: تعدّ تجربة يوسف عليه السلام في مجال تأويل الأحلام والرؤى من أولى التجارب الجادة في هذا المجال، إذ تسفر عن فهم عميق ودقة لا متناهية في فهم الرموز والمعاني الكامنة خلفها، بل وتظهر لنا جانبا مهما من جوانب وعي المفسِّر، وميزات شخصيته وسعة اطلاعه، وعمق علمه وإدراكه[20]. وهي تنقل لنا الوعي الأنثروبولوجي والإيديولوجي الذي ميز هذه المرحلة من تاريخ فلسطين ومصر من خلال ما مكّن الله ليوسف النبي من علم وحكمة ودراية، بل وما كان له من شديد الأثر على ثقافة الشعوب التي بعدها.

ب/ تجربة ابن سيرين: يعدّ ابن سيرين[21] من أهم منتجي الثقافة الإسلامية، فقد كان كتابه (تعبير الأحلام أو تفسير الأحلام) إضافة نوعية لمجال الأحلام؛ إذ استعان بمعاني القرآن والحديث النبوي، وجعل من تقاليد وثقافة عصره، مرجعية أساسية في تفسير رموز الأحلام وفهم دلالات الرؤى. وهي بدورها واحدة من أوائل التجارب الأنثروبولوجية في هذا المجال، ويعتبر كتابه مصدرا من مصادر فهم الأحلام وتفسيرها في ثقافة المجتمع الإسلامي.

ت/ تجربة علماء النفس: يعد فرويد[22] ويونغ[23] من أهم واضعي مناهج تفسير الأحلام في العصر الحديث. وقد تمثلت محاولاتها في فهم وتحليل معاني ورموز الأحلام باستخدام الأساليب العلمية والنظريات النفسية المختلفة. فغاصا في أغوار النفس والذات، واهتما بالوعي واللاوعي، واعتمدا على أساليب التحليل النفسي لفك شيفرات ورموز الأحلام. فقد ركزا على ما تحمله من معاني عميقة ورسائل مهمة عن الذات والعقل البشري، واعتبراها أحد المداخل لفهم سلوك وعواطف الأفراد والجماعات.

3) تجليات وأبعاد الوعي الأنثروبولوجي والإيديولوجي في سردية الحلم/ الرؤيا:

تعد الأحلام جزءا من التصورات الثقافية التي تساعد في تفسير تطور السلوك الإنساني في جوانبه السوسيولوجية والسيكولوجية والثقافية وكذا الدينية والاقتصادية، فهي من منظور الأنثروبولوجيا أحد الدعائم المكونة لصورة الإنسان في أبعاده المتنوعة بحسب تنوع الثقافات والديانات، فالحلم ذو مبدإٍ تفاعلي بامتياز؛ فهو في رمزيته مدعاة للتفاعلات الداخلية والخارجية –فيما يخص الوعي واللاوعي– من خلال مجموعة من العناصر المساهمة في محاولات إدراكه أو تفسيره أو تأثيره. ومن خلال هذا الفهم سنحاول دراسة أحلام الرواية وصفا وتحليلا ومقارنة، بناء على ما يستدعيه (النص/ الحلم) –في منظور الأنثروبولوجيا– من أنظمة ثقافية وسيكولوجية تكشف عن "أنماط معينة من مثل الأنظمة السردية والإشكالات الإيديولوجية وأنساق التمثيل"[24]، وعليه سنأخذ خطاب (الحلم/الرؤيا) كعينة إبداعية وظفها العتوم من منظور الأدب باعتباره تمثيلا خطابيا للثقافة[25]، نحاول من خلاله الوقوف على أهمّ ما ميز سردية الرؤى وأحلام اليقظة كقناتين ناقلتين للوعي واللاوعي.

1. مشاهد الأحلام: رؤية إبداعية:

أ. فانتازيا خطاب الرؤيا/ الحلم:

تعد نصوص الأحلام التي احتواها قالب الرواية نصوصا تاريخية دينية، اعتمد فيها العتوم على مساءلة التاريخ والدين والثقافة، ليصنع من مشاهدها أشكالا تضاهي الأسطورة. فإذا عدنا إلى حلمي يعقوب ويوسف[26] نجد أن العتوم مزج بينهما في توليفة سردية أسطورية انطلق فيها من حلم يوسف ويعقوب في مرجعياتهما العقدية بين القرآن والتوراة[27]، فالرؤيا واحدة والرائيان اثنان، لقد تمكن العتوم من مزج مخزون الموروث الثقافي وطاقته الإبداعية بطريقة تجعل المتلقي غير قادر على فصل الفعل السردي، ولا إدراك أن ما يراه يوسف ويعقوب حلمان منفصلان. فالذئاب التي يراها يعقوب في حلمه[28]يسمعها يوسف وهو على قمة الجبل، لكن لا يراها، وما يراه يوسف فوق قمة الجبل لا يراه يعقوب وهو في سفحه. هناك خطر محدق في كلا الحلمين ورمزية لعدد الإخوة بعدد الذئاب، خاصة بعدما كان للذئاب لغة وعيون كالبشر، وقد رآها تشبه عيون أبنائه.

لقد صاغ العتوم مشاهد الحلمين في سرد تخييلي، وصبغهما بصبغة أسطورية برزت أكثر عندما هيأ رموز الحلم للتجسيد، فمنح للشمس والقمر والكواكب ملامح وجذوعا وأطرافا بشرية تمارس فعل السجود، وللذئاب لغة البشر والحكمة والسطوة. واعتمد في سردهما على تداخل الأحداث المتنامي وفق وتيرة رمزية متشابكة، تاركا لخياله أفضلية التعبير والتحليق، منطلقا من رموز الحلم اليوسفي محلقا في فضاءات التخييل والابتكار. وهذا ما اعتمده في بقية أحلام منجزه الروائي. فمعرفته البدئية كمعطى ميثولوجي، أكسبته صياغة سردية استعاد من خلالها مجموع التصورات الموروثية القديمة بطريقة تخييلية، تحمل أبعادا أنثروبولوجية وإيديولوجية تستدعيها رموز الأحلام.

لقد تداخل السرد في الحلمين لينسج حلما أحاديا توحد فيه الزمان والمكان معا، مما شكل هالة فنتازية عجيبة، انطلقت من خصوصيته الثقافية لتنفتح على فضاءات تأويلية جديدة، تعيد أثناءها بناء الأساطير وتطويعها لخدمة استراتيجيات خطاب النص الذي شكل حالة التباس مريبة يتخبط فيها المتلقي "بين المألوف وغير المألوف؛ ذلك أن الفنتازيا تقدم غير المألوف على أنه مألوف"[29]. إن هذا النسج بين الموروث الديني والتخييلي الذي صبغ كل أحلام الرواية مكّننا من الغوص في أعماق الأبعاد الأنثروبولوجية والمساهمة –بالضرورة– في تجلي الأبعاد الإيديولوجية، من أجل الوقوف على وعي متكامل الأطراف.

ففي حلم يعقوب النبي[30] الذي يرى فيه امتداد النور الصاعد من الأرض إلى السماء حتى وصل إلى العرش في اتجاه عكسي استغربه، يحيلنا إلى ما جاء في نص التوراة[31] الذي يقول بأن يعقوب حلم بسلم يمتد من الأرض إلى السماء، وفي هذا انزياح جمالي يؤكد القاعدة الموروثية التي يمتلكها العتوم، والتي طوعها بشكل يخدم سردية الحلم الذي يحتم على القارئ تفعيل سلطته التأويلية حول مصير يوسف في رحلته إلى صعود سلم المكانة والنبوة. **"ونام يعقوب، في الليل، رأى أن نورا يخرج من باطن الأرض ويصعد إلى السماء، كان النور قد وصل إلى العرش، واحتار كيف يصعد النور من الأرض بدل أن يهبط إليها"**[32]، فالنور الذي استغربه يعقوب في كونه صاعدا من الأرض بدلا من نزوله من السماء، رمز لما سيكون من انتشار صيت يوسف الذي سيملأ الأرض في امتحان طويل

غير يسير من أجل تبوء المكانة والعلم. وفي الحلم ذاته يفتقد يعقوب حزام وقميص أبيه إسحاق النبي، ويبحث عنهما، فيجد الحزام، وفي ايجاده دلالة على أن هذا العهد وقع وولى، ويبقى القميص مفقودا، وفي اختفائه دلالة على أن ما هو قادم مخفي مسطّر وأن امتحان النبوة سيظهر في امتداد الأيام القادمة. وهذا ما تناص به الكاتب مع ما ورد في الكتاب المقدس بشكل من التخييل والاستبدال الرمزي بين السلم الذي يمثل الصعود المرهق في خط مستقيم، وخيط النور الذي يمثل الامتداد والإشعاع والانتشار والاستمرارية بهدوء ورزانة أكبر. إن الاستبدال الرمزي الذي اعتمده العتوم ينبئ عن الأمل الذي يشعر به يعقوب في شخص ابنه المفقود، ثم إن اختفاء القميص في الحلم يربط بين حدث في الرواية مضى، يذكر فيه الروائي أن ملاكا منح ليوسف القميص يتدثر به في جب البئر العميقة المظلمة والباردة، وكأنه اطلع في الحلم على أن في ضياعه خير ورعاية ربانية لمستقبل لا يعرف ما هو بالضبط، لكن سيكون فيه نجاة وتمكين يوسف في الأرض. وقد أشعره ذلك بشيء من الأمان كما عبر عنه السارد في قوله: **"شعر بشيء من الأمن"**[33].

وفي ظل ما أبدعه العتوم في سردية الأحلام، نجد أنه خرج عن مألوف النصوص الموروثية في مغامرة فريدة وجديدة مضافة إلى جنس الرواية العربية كنوع من أنواع التجريب. فبالرغم من أن القصة واحدة إلا أنها تختلف في سياقاتها باختلاف خصوصية الثقافة التي تطبعها مشارب وتجارب الأمم والشعوب المتنامية. وهكذا عمد في منجزه الروائي إلى التجديد والتجريب الذي لا ينتمي إلى قاعدة تصورات قديمة، لكنه يحمل في طياته أبعادا نفسية وثيقة الصلة بالشخصيات –كما تصورها– وما تحمله من فكر وتجربة وثقافة وخبرة حياتية.

ونبرر مغامرة العتوم بما ذهب إليه يونغ أن أصل الخلق الإبداعي لدى الأديب ما أسماه الخبرة البدئية[34] تلك التي تكون مصدر قدرته المبدعة[35]، والتي يلجأ فيها إلى "نوع من التمثيل عصي على الفهم، حافل بالنقائض، لكي يستطيع التعبير عما في رؤاه من تناقض عجيب"[36]، لذلك وجب عليه "أن يكون تحت تصرفه مخزون هائل من المواد إن كان يريد البوح ولو بقليل عما في سريرته"[37]، وهذا ما لجأ إليه العتوم عندما طاف بمكامن الشعور في قصة يوسف عبر الكتب السماوية، وعرج بخطاب الحلم فيها من التأريخ إلى التخييل، يستحضر فيه مقاليد السرد الأسطوري الذي مزج فيه بين أصل سياقات القصة في الديانات السماوية وبين إبداعه التخييلي.

فالأحلام –ذات الفعل السردي التخييلي– ممثلة في أحلام الساقي والخباز، والملك وقطفير (زوج زليخة) ومالك، وروبيل ويهوذا وحتى يعقوب وزليخة تدور في محورها على تفعيل خطاب الثقافة من جهة وعلى تبرير الخطاب السيكولوجي، فهي في مجملها أحلام وتخيلات وهلوسات بين النوم واليقظة تصنع دوائر من الأنساق الثقافية والسيكولوجية التي يكشفها خطاب الحلم في رموزه الثقافية واللغوية.

ب. سرديّة الحلم: بحث في أنثروبولوجيا اللغة والثقافة:

- **الحلم/الرمز نسق الكيد والفتنة:**

جمع بول ريكور –في حديثه عن مصادر الرموز[38]– الحُلمَ والسّردَ واللغةَ عندما اعتبر الحُلم "مشهدا ليليا مجهولا لدينا لا نبلغه إلا بسرد المستيقظ ولما كان الحلم كذلك فهو قريب من اللغة، لأنه يمكن أن يروى ويحلل ويؤول... فهو نوع من اللغة الرمزية غير المباشرة"[39]، وعليه فالأحلام مساحة "للتمثيلات اللاشعورية باعتبارها تعبيرات مشوهة عن العلاقة بين دوافع إرادية ودوافع لا إرادية"[40]، لا تُنقل إلى المتلقي إلا عن طريق سردها بلغة وفق حمولة ثقافية تكشف هويتها مجموع البنى السيكولوجية والسوسيولوجية والمعتقدات الدينية والروحية أو الفلسفية. وهذا ما يؤكد خوف يعقوب النبي على ابنه يوسف بعد ما سرد عليه يوسف رؤياه، **"احذرهم... اخوتك موطن الخوف كله... اكتم ما جرى بيننا"[41]**. إن لغة الحلم عبارة عن رموز تنبئ عن محمولات عديدة فسرها يعقوب في حينها وتوقع أبعادها الاستشرافية على حياة يوسف وبقية أبنائه، ولذلك حذّره من قصّها عليهم، فسياق الحلم يعرض مشروع نبي، وهذا سيكوّن أزمة في نفوس الإخوة الحاسدين.

لقد حركت رموز الحلم وأفعالُها في نفسية الإخوة مكامن الدنس وبذور الخطيئة الأولى، خطيئة استباحة القتل تحت مبدإ الحاجات النفسية والشغور الروحي الذي تنامى في لاشعورهم، أو مبدإ الشر النابع من الهشاشة العاطفية[42] التي ولدتها عقدة استجداء الحب. فأضحت غريزتهم توهمهم في أحلام يقظة مشبعة برائحة الخطيئة؛ إنهم إن تخلصوا من يوسف فلن تكون له المكانة والشرف الذي ساقه تفسير هذه الرموز، بل أرادوا أن يجسدوا في لاشعورهم رؤيا أبيهم برمزيتها، فيكونون بذلك عشرة ذئاب بشرية تنتقل في طبيعتها التأويلية إلى شر محقق[43].كل هذا لأن الاحتياج العاطفي أنهكهم وحرك فيهم الغيرة المخبوءة، وجعلها تنفجر بعد أن كانت دفينة النفوس. لقد وسّع الحلم هذا الشرخ العاطفي فاستكانت أنفسهم للمكيدة.

إذن، يعدّ حلم يوسف بمثابة الحافز الذي أذكى نيران الغيرة الدفينة، وأخرجها واضحة جليّة في طاقة كيد، فالحلم محفز نفسي، أسهم في استثارة مشاعر الخوف المحجوزة حسدا وبغضا، فحفز الإخوة من أجل استقطاب حب أبيهم والاستحواذ على اهتمامه، فما لبثوا –بسبب الرؤيا– أن ثاروا ليفيض بعدها كيدهم طوفانا من العواطف المدمرة. ووفق هذا المؤثر يتحرك إخوة يوسف لينصبوا له فخا يرونه الخلاص لمشاكلهم النفسية، خاصة بعد هذه الرؤيا الحقة، فلا مجال للشك بعد الآن، فهو ذريعة لتنفيذ رغباتهم المريضة.

لقد تولدت في أنفسهم نار الخطيئة الأولى، خطيئة قابيل مع أخيه هابيل؛ إنها الدّرن المرتكز في اللاشعور الجمعي الإنساني التي تنحدر معها كل نفس بشرية تطاوع رغباتها الدّنيا لتأخذها إلى مراتب الهوس والمرض النفسي لدرجة يستطيع الأخ أن يلحق فيها الضرر بأخيه الإنسان. عقدة استجداء الحب؛ هذا ما يشغلهم وما أثارها فيهم أكثر إلا هذه الرؤيا التي كانت بمثابة محفزٍ لرغبات الشر المكبوتة، والذريعة التي تبرر حقهم في استرجاع مكانتهم في قلب أبيهم النبي. إن طاقة حسد الإخوة تُرجِمت في لاشعور النبي يعقوب حلمًا تجسدت فيه رموز الذئاب العشرة التي رآها تتربص بابنه لتنهش لحمه، **" كانت أشداق الذئاب تسيل زبدا، وعيونها تقدح شررا، إنها ليست عيونا**

عادية، إنها جمرات متقدة، لكنها تشبه عيون البشر، (لماذا بدلت الذئاب عيونها؟) سأل نفسه، لكنه أردف بعض لحظة صمت: (ربما بدل البشر جلودهم..)... رآها يعقوب، رأى عيونها بشكل مباشر، كم تشبه عيون أبنائه"[44]. فالإخوة مشحونون بأزمات فكرية ونفسية جعلتهم ينحنون أمام رغباتهم الإنسانية الدنيئة في سبيل الخلاص، وهو في نظرهم التخلص من يوسف وخاصة بعد الرؤيا؛ فالحلم هنا صار نبوءة محققة إنها (الرؤيا/ الحلم/ النبوءة)، وأثر وقعها النفسي على نفوس إخوته، لا يقل وقعا على أمهم وهي تسمع بالرؤيا بعد أن قصها عليها يعقوب. وفي هذا دليل على قوة وقع الأحلام على نفسية الإنسان ومدى الخوف والهواجس التي تعتريه بسببها.

لقد نهى يعقوبُ يوسفَ –عليهما السلام– عن قص رؤياه، حيطة ونصحا وتحذيرا من كيد اخوته، وظاهر النهي خوفٌ يضمر نسقين: الأول إثبات حقيقة ما سيحدث؛ إنها رؤيا إثبات النبوة ليوسف في المستقبل. والثاني –بعد تأكد يعقوب أن وريث نبوته سيكون يوسف عليه السلام– انتقام الإخوة وكيدهم له إن هو حدّثهم بها **"حلمي لي ولك، وحلمك لكلّ الناس، فلا تقصه على أحد سواي"**[45]. إنها الرؤيا ذاتها التي تثبت خوف الإخوة الدفين وإحساسهم بالتهميش، وتفسر لهم حب والدهم وتعلقه بأخيهم، وتبرر لهم دافع التخلص منه فقد أصبح (الحلم/ مركزًا/ بؤرة) تتشابك فيه رموزه لتنبئ عن تصارع الرغبات والأحلام والأوهام. لقد ارتفع خطاب الرؤيا على كل خطاب وأسفر عن خوف في شكل انتقام وتطور ليكون تكذيبا وإنكارا يفرزه شعور النبذ، رغم جزمهم بحقيقتها **"لا رؤيا لصبي، أضغاث"**[46]، ثم تَشفٍّ في قول أحدهم بعد دفع يوسف في البئر **"من يرى يَخسر... من يرى يُختبر"**[47].

لقد طغت سطوة الحلم/الرؤيا على مشاعر الإخوة، فأحالتها متضاربة وساخطة، فهي نذير بدنوّ مجد أخيهم ودناءة منزلتهم، ولذلك وجب وضع حد لذلك **"الحلم يفرض نفسه على أبينا يوما بعد آخر"**[48]، ويتأكد هذا التضارب على مستوى شعور الإخوة بين حيرة وحسرة وغضب وسخرية وخوف ورحمة، ويمكن رصد بعضها في قول يهوذا ساخرا متحسرا **"نجتمع من أجل أن نناقش الحلم، ما هذا الهراء"**[49]. وفي غضب وسخرية شمعون من يوسف عندما استجار به من بطش إخوته **"استجر بالأحد عشر كوكبا التي رأيتها في منامك"**[50]، وفي خوف ورحمة روبيل فمشاعره كانت بين مسايرة إخوته في خطتهم وبين رحمةٍ بيوسف، وهو صاحب فكرة رميه في الجب والعدول عن قتله **"يا يوسف لما قصصت الرؤيا. أما كنت في غنى عنها وعنا؟ أترى أن كل هذا لذاك؟"**[51]. حينها علم يوسف أن سبب البطش والحقد والكره الذي نبت وامتدّت فروعه مع نياط قلوب إخوته، هو الحلم نفسه الذي رآه، وفهم وصية والده بعدم قصه وخوفه عليه، وتمنى في تلك اللحظة لو لم يره. هنا نستنتج مدى تأثير الحلم على جانب المعتقد الفطري في قلب الإنسان ومدى الإيمان الراسخ بتحققه ولو كان غيبا بعيدا؛ وهذا ما انطبع في أفعال إخوة يوسف لذلك اجتمعت أسباب القضاء عليه قبل أن يتحقق.

تنوعت نصوص أحلام الرواية بين النوم واليقظة؛ حيث يحتفظ حلم اليقظة بحركية أكبر وقدرة صاحبه على التحكم فيه، باعتباره أكثر خضوعا للوعي[52]، فزليخة تحاول إقناع نفسها بالإيحاء والتخييل أن تعيد جزءا من كرامتها

المطعونة، ولو عن طريق أحلام اليقظة، فأثناءها "يستولي الحالم على قواه ويصبح سيدا لها، ويحس حينها بحلم يقظة إرادة ينشط بداخله"[53]؛ لذلك نفسّر جموح رغبة زليخة في يوسف بطغيان مشاعر الحبّ الأنثوية المبنية على العشق من جهة، وغريزة الاحتياج الجسدي[54] من جهة ثانية، وهذان الاحتياجان –قبل الرفض– منحاها القدرة لتراود يوسف عن نفسه، وملّكاها السلطة والتفويض لتنزل من نفسها منزلة الآمر من جهة، وذلّ المتوسل من جهة أخرى، فاستحالت على طرفي نقيض؛ وما يفسر ذلك "أن أحلام اليقظة المادية تغير حجم قدراتنا فهي تعطينا ... أوهام الجبروت"[55] أحيانا وأوهام الاستسلام أحيانا أخرى. وقد أكسبتها هذه القدرة من الاستيهامات مراودة يوسف عن نفسه من منطق قوة وفتنة واسترحام، في حين أننا نجد اشتغال آلية دفاعها النفسي الجبروتي في رد اعتبارها المهدور على أقدام يوسف بعد رفضها من منطق كيد وانتقام، وذلك باستدعاء النسوة الساخرات منها والإطاحة بهن في فخِّ الإرادة المسلوبة، تلك الهالة التي يضعك فيها سحر النبي وعشق المقدس بفكر مدنس وتواطئ الرغبة المحمومة، ففي ثنائية (الذات/ حلم زليخة) و(الموضوع/ عشق يوسف)، نجد أن الرغبة المتخيلة مضاعفة، والمقاومة المكبوتة لديها في مملكة عشقها أثارت أحلام يقظة حركية أيقظت مقاومة نائمة في أعماقها، ولأن النفس البشرية تتميز بقوة دفع[56] جعلت من زليخة المجروحة بالرفض، مقاوما بدل أن تكون في حالة انسحاب وخمول، واستبدّ بها خيالها وأحلامها الناقمة بإيقاظ كتلة الشر التي سحبت نسوة مصر إلى شراكها، ثم الإيقاع بهم في شرك عشق يوسف، وجعلهم يشربون من كأس أحلامها المحمومة وعذاب خيالاتها وحبها المكبوت، وانطلقوا معها في رحلة الهوس بيوسف القديس. لقد استعصى عليهم حتى في أحلامهم وحال بينهم وبين أزواجهم وحياتهم وحتى أرواحهم، فغاب معهم الإدراك الحسي للصور الحياتية العادية واستحال مع قدسية المرغوب.

- **الحلم/الرمز نسق اللغة والأسطورة والمستقبل:**

هيأ العتوم المتلقي للفعل الفانتازي عندما نسب لغة البشر للذئاب في فصلين أولين[57]، ضاهى فيهما قصص الأساطير القديمة المؤسِّسَة لسلوك وآثار الفكر البشري، والمحلِّلة لمجموع الظواهر النفسية والاجتماعية والثقافية. إنها –الذئاب– في حدثها الأسطوري الذي أسنده إليها العتوم، تُبرِّئُ نفسها من اتّهام الإنسان حامل الشر القديم، وتَدخُل في خطاب مطول مليء بالحكمة وتوضيح أصول الشر في الإنسان. لقد استلّ من هذه البدايات شخصية (الذئب/ الأطحل /الرمز) ليكون دوره في حلمي يعقوب ويوسف وأحلام مالك وروبيل، على اختلافها بين اليقظة والمنام، صوت الحقيقة المسكوت عنها، والمخفية كذبا وبهتانا في لوثة الدم على القميص. فاللغة ظاهرة اجتماعية موكلة للبشر "قائمة على دور الوساطة الذي تؤديه العلامات والرموز بين ما هو عقلي وما هو حسي"[58]، وقد نسب الكاتب اللغة البشرية للذئاب لوعيه بخصوصية سلوك مجتمعها الحيواني ونظامها المعيشي الذي يؤكد بأنها تعيش في تنظيم متقن وهيكل يتضمن التعاون والتضامن والتواصل والترابط العائلي[59]، فالإسناد الرمزي الذي اعتمده الروائي يبرز أن وظيفة الرمز هي ربط نموذجٍ واعٍ بنموذجٍ واعٍ آخر، فنحصل –بالضرورة– على الوعي الذي يفسر المقصد والغاية منه[60]. وتبرز أكثر في إنكار الاتهام الذي ألصقه البشر بهم، وهي صفة الغدر، فنموذج الذئب المتكلم الحكيم

يظهر في أحلام الشخصيات متحسرا على يوسف، نافيا عن نفسه اتّهام البشر له، مقرّا بأنّ صفة الغدر لصيقة بهم. خطاب ينضح بالحكمة ومساءلة الضّمير الإنساني، ويلوم الجميع على التفريط في نبيّ الله.

لقد تماهت شخصية الذئب/ الأطحل مع الفضيلة والإنسانية التي غابت عند البشر، وأصبح معادلا موضوعيا لصوت الضمير الغائب الذي يظهر في أحلام نومهم أو يقظتهم ليخاطب عقولهم التي غابت ساعة قرار التفريط بيوسف. فشخصية الأطحل تمثل معيار الواقع الأخلاقي في وجهه الثاني، والذي غُيّب في مشاعر الحسد والرفض والجشع التي غَيّبت العقل لديهم.

تتوفر الأحلام في مخزون رموزها على سمات تبرز ثقافة المنطقة وعاداتها وتقاليدها، فمثلا فعل السجود لا يكون إلا لملك في عرشه، وما كان مُجازا في شريعتهم كان من باب إلقاء التحية إذا سلموا على الكبير[61] ،كذلك الكواكب والشمس والقمر والجبل والذئاب فهي أنسب لمنطقة رعوية بدوية يصفو جوها لتظهر هذه الكواكب والنجوم رأي العين. لكن، عندما اقترنت بفعل السجود حال الفهم واستعصى وكان لابد من الانتقال الذي هيّأه الله ليوسف في قدره والذي ساقه له كيد اخوته؛ لذلك فهناك استشراف لنوعية الحياة التي سيعيشها يوسف ويتبوؤها من ملك ومكانة ورفعة وشرف. وفي حلم الملك تظهر رموز طبيعية تعبر عن سمات المنطقة وخصائصها، فالنيل والبقرات السمان والسنابل الخضر رمز للسخاء والنماء والزراعة التي تنماز بها أراضي مصر، والبقرات العجاف التي تخرج منه دلالة على نضوبه، والسنابل اليابسة تدل على القحط الذي سيصيب المنطقة.

وإذا عدنا إلى ثنائية (حلم الملك/ تأويل) نجد أن النبي يوسف امتلك قدرة تفسيرية توليدية بناءً على ترتيبٍ وتدبيرٍ إلهي يضرب بها انحسار التعبير في مجتمع الكهنة بعدما تعطلت هذه القدرة عندهم وظهر عجزهم في رؤيا الملك، بالرغم من أنها كانت مرتبطة بطقوس دينية أو بالأحرى طقوس يتلاعبون فيها باسم الدين، وقد لحظنا هذه القدرة التوليدية قد تحولت إلى إنجازية بالوعي العقلي والإنجاز الفعلي عندما استغل يوسف موضوع الحلم/التأويل إلى حلٍّ فَرَج، أخرج به مصر من أزمة قحط وجفاف كانت وشيكة. وقد مارس هنا يوسف وعي الثقافة الناتجة عن وعي العقل البشري الذي يتولد فيه الفكر ليحوّل من الممكن الطبيعي وعيا إيديولوجيا ومنجزا ثقافيا يخدم وعي الأنثروبولوجيا في أبعادها الجغرافية والاقتصادية. ولذلك وجب أن يدبر الحل شخص يملك من جوامع العلم بالزراعة والكفاءة والقدرة على التسيير. وتوفر ذلك في عقل النبي يوسف الذي فسّر الحلم وأوجد الحل للمعضلة بقدرته البارعة بشؤون الأرض والموارد الطبيعية وتقنيات الزراعة والادخار. فقد أحاط بجميع جوانب الحياة المادية التي أنقذت المجتمع المصري، وأبدى بذلك وعيا أسهم في تنمية ثرواته الزراعية، وكيفية توزيعها واستهلاكها الرشيد في سنوات المحنة. كما يمكن أن نشير، في هذا المقام، أن حلم البقرات والسنابل أصبح ذريعة بالنسبة لوالدة الملك حتى تعيد علاقة ابنها الملك بمجتمع الكهنة الذي ثار عليه ورفض سلطته. وعجزُهم في تفسيره وتأويل رموزه زاد من هوّة المسافة وأصبح حجة للملك يثبت من خلالها عجزهم وبداية أفول سلطتهم. وتبرز هذه الأنساق أكثر من خلال عرضها في المخطط رقم 02.

المخطط رقم 02: أنساق حلم الملك.

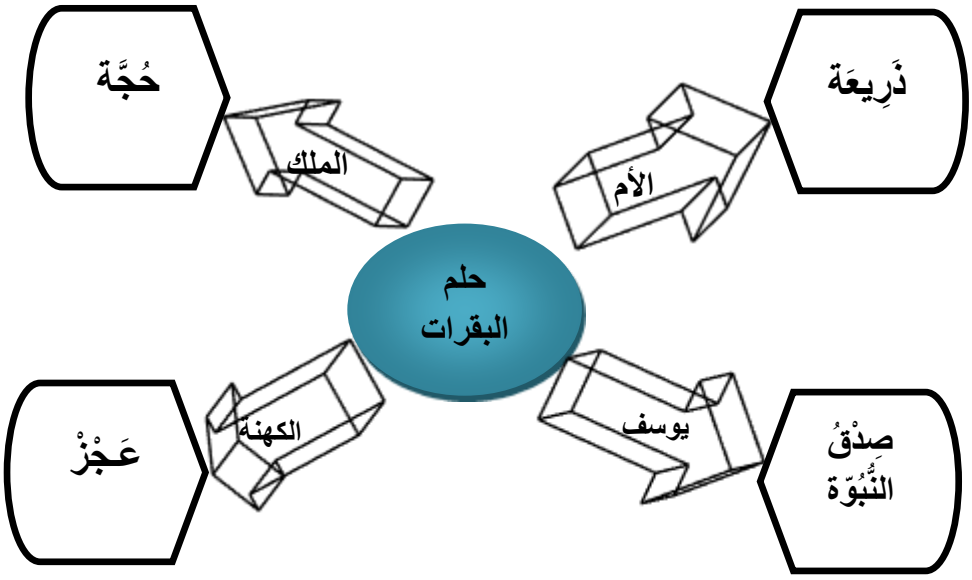

2. سيكولوجية الأحلام: اللّغة المنسية:

يتجلى البعد النفسي للأحلام عند العتوم في روايته حينما عبر عنه في قوله: "**الأحلام أصدق من الحقيقة، ظهر الرؤيا بطن الواقع وما كان للروح من الرؤيا في النوم أشد وضوحا مما كان للجسد من الرؤية في اليقظة**"[62]، إنه تعبير حرفي لما يمثله اللاشعور في نسج الأحلام انطلاقا من تداعيات الوعي وتأثيراته على اللاوعي، هذا اللاوعي الذي يخزن أكثر مما يقدمه له الوعي في حالاته الفردية، بل يتعداها إلى الجمعية.

وثمة أسباب عديدة تدفع الإنسان إلى كبت الدوافع والأسباب التي يخافها أو ينكرها خشية أن لا يرضى عنه الغير، أو خشية انفضاح أمره بين المقربين أو نتيجة شعوره بالذنب إذا ما تم الوعي به والخوف من العقاب. وطردها من كفة الوعي لا يعني أبدا أنها كفت عن الوجود فهي تستمر بداخل الفرد وتنحسر، وإذا ما تم لها عوامل الانفجار لا تتوانى عن اقتناص فرص التعبير عن نفسها بأشكال عديدة[63]. وهنا يمكن أن نقرن بين ما ذهب إليه العتوم ويونغ معا في توصيفهما للحلم. ويؤكد يونغ في هذا الصدد أن الأحلام التي يكون مصدرها النماذج البدئية تتركز في اللاشعور الجمعي، وما يعاودنا "في الأحلام والأوهام، يمكن أن نجد له معادلا تاريخيا وميثولوجيا في جميع أنحاء العالم"[64] أو في ماضٍ إنساني مشترك أو في حوادث قديمة، ويعتبر فرويد الحلم "ضربا من التفريغ النفسي لرغبةٍ في حالة كبت"[65]، فما أصاب روبيل ومالك نوع من أنواع التفريغ النفسي؛ فحادثة فقد الإخوة لأخيهم بنيامين، ذكّرهم بجريمتهم في أخيهم يوسف قبل أربعين سنة، لقد خرج روبيل للبحث عن يوسف بغير هدى في حالة هستيرية بعد كل هذه المدة. وما حدث معه عبارة عن صدمة حدثت بفعل "تداعٍ طرأ اتفاقا"[66] مع حادثة فقد بنيامين، لأن حوادث الماضي المكبوتة "تتستر وراء الأحلام والأوهام، فتنشأ أمامنا ضرورة ملحة للتنقيب عنها وإخراجها إلى حيز الوعي، إذا ما أخذت تسبب لنا اضطرابات نفسية كما هو الأمر في العصاب"[67]. كذلك ما عاناه مالك – بعد أن هام في الصحراء– من أوهام وتخيلات وأحلام والتي اعتبرها نوعا من أنواع العقاب النفسي لأنه فرط في يوسف.

وهكذا، تعتبر الأحلام لغة التعبير التي يختص بها الوعي واللاوعي في منظومة بشرية تطغى فيها المادة على حساب المحسوس من العواطف والغيبيات، ولهذا تعتبر اللغة المنسية المركونة التي نبحث فيها عن احتمالات التأويل ونلجأ إليها لنغوص في أفضية النفس علنا نمسك بلحظات الفهم والإدراك.

خاتمة:

أخيرا مكّننا هذا البحث من الوقوف عند أهمية خطاب الأسطوريات المؤسّسة للثقافة والأدب، فالكتابة الأدبية تحوير وإعادة تأثيث لها، فهي هدمٌ وإعادة بناء. والحلم باعتباره نسقا سرديا ميثولوجيا سخّره أيمن العتوم لبناء خطابه السّردي، كشف وعيا أنثروبولوجيا وأيديولوجيا نصوغ نتائجه في الآتي:

- تعدّ مغامر العتوم نوعا من أنواع التجريب الذي استلهم فيه تراثا دينيا تاريخيا متعدد المشارب والشرائع، واستطاع أن ينطلق من نصوصه، ليسنج خطابا تراثيا أسطوريا مؤسسا لإيديولوجيات الشعوب وثقافاتها المتباينة.
- استطاع العتوم من خلال إعادة خلقه الإبداعي لقاعدة الموروثات الدينية والتاريخية، أن يبدع خطابا فنتازيا أسطوريا بأبعاد إيديولوجية وأخرى أنثروبولوجية، فجّر من خلاله لغة بحمولات ثقافية ونفسية تنفتح على فضاءات الرؤيا والتأويل.
- يعدّ الحلم لغة رمزية مشحونة بالدّلالات الأنثروبولوجية ومشبعة بالوعي الجمعي المتوارث، والمستمد من الدين والأساطير والقيم الاجتماعية والإنسانية بين صنوف البشر، وهو ظاهرة إنسانية مشكلة للأنماط الثقافية داخل منظومة نفسية بشرية يتأسس من خلالها السلوك الحضاري للجماعات البشرية.
- كشف خطاب الحلم عن إيديولوجية الإنسان من خلال أحلام نومه أو يقظته؛ إذ ينبئ عن امتدادات روحية أو مخلفات نفسية مرضية، تستشرف مستقبلا أو تبرز صراعا، بحيث تكون الأحلام قناة ناقلة للوعي واللاوعي، وقد وظفها العتوم من منظور الأدب كونها تمثيلا خطابيا للثقافة بناء على ما تستدعيه من أنظمة ثقافية وسيكولوجية تبلور من خلالها الوعيان الأنثروبولوجي والإيديولوجي المساهم في كشف أغوار النفس البشرية.
- استطاع العتوم أن ينقل لنا وعي النبي يوسف من خلال تفسير الأحلام الذي لا يكون إلا عن دراية وعلم، كونها رموزا ثقافية يستشرف من خلالها مصيرا أو حلولا، لذلك فهي رسائل مشفرة تكشف عن حقائق يمكن أن تكون تحذيرية أو تبشيرية.

كما يمكن أن نشير آخرا إلى أن رواية "أنا يوسف" لكاتبها أيمن العتوم غنية بالقضايا التي تستوجب الدراسة والتي لم تسعها هذه الورقة البحثية، ويمكن صوغ بعضها في شكل توصيات سريعة هي: التركيز على دراسة الشخصية داخل وخارج الحلم، الشخصية ولغة الجسد، تيمة الحب في الرواية، قصة النبي يوسف بين القرآن والتوراة دراسة مقارنتية، اللغة والبناء الأسطوري عند أيمن العتوم.

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم، رواية ورش عن نافع.
- الكتاب المقدس سفر التكوين.

- أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، (1417هـ/ 1997م)، لسان العرب، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- أحمد بن علي بن حجر، (1986م)، فتح البارئ لشرح صحيح البخاري، دار الرياض للتراث، القاهرة، مصر.
- أحمد بن عبد العزيز قشوع، (1435هـ)، تأملات في رؤيا يوسف عليه السلام، مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية، جدة.
- إسماعيل ابن كثير، (1407هـ/ 1987م)، تفسير القرآن العظيم، تقديم: يوسف عبد الرحمان المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- أيمن العتوم، (1440هـ، 2019م)، أنا يوسف، دار المعرفة، القاهرة.
- إريك فروم، (1995م)، اللّغة المنسيّة، تر: حسين قبيسي، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء.
- جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي، (د ت)، تفسير الجلالين، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- جنات بلخن، (1434هـ/2013م)، السرد التاريخي عند بول ريكور، منشورات الاختلاف، الجزائر.
- كارل غوستاف يونغ، (1997م)، علم النفس التحليلي، ترجمة وتقديم: نهاد خياطة، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا.
- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، (2005م)، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.
- مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، (1428هـ/ 2008م)، القاموس المحيط، تحقيق محمد أنس الشامي وزكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة.
- محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، (1422هـ)، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر، باب التعبير، دار طوق النجاة.
- محمود المصري، (1429هـ/ 2008م)، يوسف الأحلام، مكتبة الصفا، القاهرة.
- محمد بن سيرين، عبد الغني النابلسي، (1429هـ/ 2008م)، معجم تفسير الأحلام، رتبه معجميا وأعاده: باسل البريدي، مكتبة الصفاء، أبو ظبي، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت.
- محمد بن سيرين، (د.ت)، كتاب تعبير الرؤيا، المكتبة الثقافية: بيروت، لبنان.
- نخبة من العلماء، (1430هـ/ 2009م)، التفسير الميسر، تقديم: صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة.
- سيغموند فرويد، (1994م)، تفسير الأحلام، تر: مصطفى صفوان، راجعه: مصطفى زيغور، دار المعارف، القاهرة.
- عبد الله الغذامي، (2001م)، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان.
- عبد الفتاح أحمد يوسف، (1431هـ/2010م)، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة، منشورات الاختلاف، الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون، لبنان.

- فؤاد مخوخ، (2017م)، من نقد العقل إلى هيرمينوطيقا الرموز، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، لبنان.
- قناة ستيب فيديوغراف على اليوتيب: مجتمع الذئاب مجتمع فاق المجتمعات الإنسانية تنظيما. الأحد 7 أفريل 2024م.

https://l.facebook.com/l.php?u=https%3A%2F%2Fyoutu.be%2FjZ5aQAnFkEc%3Fsi%3DnYC1hLfuOSPx_Haz%26fbclid%3DIwAR2-3hR8VxgfQC5g_fug7qnr7BxU8YH0zdzAwj83XaBDR6-mA3Uloi0JnEg_aem_AavjQtg5doeU19DrJTq2zwLfo0gmVf96BhkWICcoLIiuOsph-HjbQ6VN7qhM11Te7zdit0mHaFAf3PcNgAPJ00Fc&h=AT0OFd71m6KdmSConedMMbeCCF2Se-PE6R2S6neQQdg6s62qOhqemyEQS--i5PfyR7S1eED9EeKmwktPYm5z19N0z26A-6rgpVysk7gnzJuV95SvdinCBEeWCwzNQpShR5m8iA

- شهلا العجيلي، (1432هـ/ 2011م)، الخصوصية الثقافية في الرواية العربية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.
- غاستون باشلار، (2018م)، الأرض وأحلام يقظة الإرادة، ترجمة: قيصر الجليدي، دائرة الثقافة والسياحة، أبو ظبي.
- غاستون باشلار، (2007م)، الماء والأحلام، تر: علي نجيب إبراهيم، تقديم: أدونيس، المنظمة العربية للترجمة: بيروت.
- LAROUSSE ، الأربعاء 27 مارس 2024م.

https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/r%C3%AAve/69059

الهوامش والإحالات:

[1] يقول عن نفسه: أؤمن أنني ولدت بنسخة هي مختلفة تماما عن النسخة التي صرتها!! ليس لأننا –بشرا– دائمو التحول، ولكن لأنني خبأت نسخة الطفولة مني واحتفظت بها في إحدى زوايا عقلي، وما زلت أرجع إليها كي أرى كيف انبثقت منها وصرت تدريجيا إلى ما صرت إليه. ولد شاعر وروائي الأردن في الثاني من آذار من عام 1972م، في مدينة جرش في قرية سوف، شغل منصب معلم للغة العربية في عدّة مدارس في الأردن، وأسس العديد من اللجان الأدبية والأندية المتخصصة بالكتاب. يعتبر شاعرا وروائيا مُكثرا بين الشعر والمسرح والرواية، من بعض مؤلفاته في الرواية: يسمعون حسيسها، رؤوس الشياطين، اسمه أحمد، يا صاحبي السجن، وأنا يوسف الصادرة سنة 2019م. ينظر: أيمن العتوم، هذه سبيلي، د ط، دار المعرفة للنشر والتوزيع: القاهرة، 2021م.

[2] أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، المجلد 12، عمود 2، الطبعة السادسة، دار الفكر للنشر والتوزيع: بيروت– لبنان، 1417هـ/ 1997م، ص 145.

[3] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، الطبعة الثامنة، مؤسسة الرسالة: بيروت– لبنان، 2005م، ص 1096.

[4] مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، القاموس المحيط، تحقيق: محمد أنس الشامي وزكريا جابر أحمد، د ط، دار الحديث: القاهرة، 1428هـ/ 2008م، ص 605.

[5] سورة يوسف، الآية 43.

[6] سورة الصافات، الآية 105.

[7] سورة يوسف، الآية 5.

[8] سورة الطور، الآية: 30.

[9] إسماعيل ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، تقديم: يوسف عبد الرحمان المرعشلي، الجزء الرابع، الطبعة الأولى، دار المعرفة: بيروت– لبنان، 1407هـ/ 1987م، ص 261.

[10] بالفرنسيّة: أحلام اليقظة (Rêveries)، وأحلام النوم (Rêves). ينظر: LAROUSSE ، الأربعاء 27 مارس 2024م، الساعة: 5:03 سا. https://www.larousse.fr/dictionnaires/francais/r%C3%AAve/69059

[11]غاستون باشلار، الأرض وأحلام يقظة الإرادة، تر: قيصر الجليدي، مراجعة: كاظم جهاد، الطبعة الأولى، دائرة الثقافة والسياحة: أبو ظبي، 2018م، ص 12.

[12]محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر، صحيح البخاري، باب التعبير، حديث رقم 6986، الطبعة الأولى، دار طوق النجاة، 1422هـ، ص 3091.

[13]ينظر: أحمد بن علي بن حجر، فتح البارئ لشرح صحيح البخاري، ج 12، د ط، دار الرياض للتراث: القاهرة- مصر، 1986م، ص 353.

[14]سورة يوسف، الآية 44.

[15]سورة يوسف، الآية 43.

[16]سورة يوسف: الآية 6.

[17]ينظر: جلال الدين محمد بن أحمد المحلي، جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي، تفسير الجلالين، د ط، دار المعرفة، بيروت- لبنان، د ت، ص 309، 310.

[18]نخبة من العلماء، التفسير الميسر، تقديم: صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ، الجزء الثاني عشر، الطبعة الثانية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف: المدينة المنورة، 1430هـ/ 2009م، ص 236.

[19]ينظر: محمود المصري، يوسف الأحلام، الطبعة الأولى، مكتبة الصفا: القاهرة، 1429هـ/ 2008م، ص 31. وأحمد بن عبد العزيز قشوع، تأملات في رؤيا يوسف عليه السلام، الطبعة الأولى، مكتبة الملك فهد الوطنية: المملكة العربية السعودية – جدة، 1435هـ، ص 36، 37.

[20]ينظر: محمود المصري، يوسف الأحلام، ص 31، 39. وأحمد بن عبد العزيز قشوع، تأملات في رؤيا يوسف عليه السلام.

[21]ينظر: محمد بن سيرين، عبد الغني النابلسي، معجم تفسير الأحلام، رتبه معجميا وأعاده: باسل البريدي، الطبعة الأولى، مكتبة الصفاء: أبو ظبي، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع: دمشق- بيروت، 1429هـ/ 2008م، ومحمد بن سيرين، كتاب تعبير الرؤيا، د ط، المكتبة الثقافية: بيروت/ لبنان، دت.

[22]ينظر: سيغموند فرويد، تفسير الأحلام، تر: مصطفى صفوان، راجعه: مصطفى زيغور، دار المعارف: القاهرة، 1994م.

[23]ينظر: كارل غوستاف يونغ، علم النفس التحليلي: ترجمة وتقديم: نهاد خياطة، الطبعة الثانية، دار الحوار للنشر والتوزيع: سوريا، سنة 1997م.

[24]عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط2، المركز الثقافي العربي: المغرب، لبنان، 2001م، ص 17.

[25]ينظر: عبد الفتاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب وأنساق الثقافة فلسفة المعنى بين نظام الخطاب وشروط الثقافة، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف: الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون: لبنان، 1431هـ/2010م، ص51.

[26]ينظر أيمن العتوم، أنا يوسف، الطبعة الأولى، دار المعرفة: القاهرة، 1440هـ، 2019م، ص ص (15، 20).

[27]ينظر: الكتاب المقدس سفر التكوين، الفصل 37، أحلام يوسف، ص 45.

[28]يمكن أن نشير في هذا السياق إلى أن حلم يعقوب الذي تمثل في حلم الذئاب التي تطارد يوسف والذي يعتبر من الإسرائيليات قد ذكر أيضا في كتاب تفسير الأحلام لابن سيرين في باب رؤيا يعقوب عليه السلام، ينظر: محمد بن سيرين، تفسير الأحلام، د.ط، دار الكتاب الحديث، (1431هـ/ 2010م)، ص 8.

[29]شهلا العجيلي، الخصوصية الثقافية في الرواية العربية، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية: القاهرة، 1432هـ/ 2011م، ص 321.

[30]ينظر: أيمن العتوم، أنا يوسف، ص 114، 115.

[31]هذا الحلم رآه يعقوب قبل أن يتزوج في الكتاب المقدس، وفيه دلالة على امتداد نسل يعقوب في الأرض بالملك والتمكين وانتشارهم في الأرض. ينظر: الكتاب المقدس، سفر التكوين، الفصل 28، حلم يعقوب في بيت إيل، ص 32، 33.

[32]أيمن العتوم، أنا يوسف، ص 114.

[33]ينظر: المرجع نفسه، ص 114، 115.

[34]يقول يونغ: مفهوم النموذج البدئي مستفاد من الملاحظة المتكررة لما تشمل عليه الأساطير وقصص الحور Fairy Tales المعروفة في الأدب العالمي من موضوعات محددة رئيسية، شائعة في كل مكان. لكننا نصادف هذه الموضوعات لدى أفراد يعيشون بين ظهرانينا في أيامنا هذه، في خيالاتهم وأحلامهم. وهي ما أطلق عليها الأفكار البدئية أو النماذج البدئية أو الخبرة البدئية. ينظر: كارل غوستاف يونغ، علم النفس التحليلي، ص 243، 244.

[35]ينظر: المرجع نفسه، الفصل الثامن: علم النفس والأدب، ص 169.

[36]المرجع نفسه، ص 169.

[37]المرجع نفسه، ص 169.

[38]يعرف بول ريكور الرمز في قوله: "أقصد بهذا المصلح العبارات ذات المعنى المزدوج expressions à double sens التي غرستها الثقافات التقليدية". ينظر: جنات بلخن، السرد التاريخي عند بول ريكور، الطبعة الأولى، منشورات الاختلاف: الجزائر، 1434هـ/2013م، ص 23، 24.

[39]المرجع نفسه، ص 23.

[40]المرجع نفسه، ص 23.

[41]أيمن العتوم، أنا يوسف، ص 27.

[42]ينظر: جنات بلخن، السرد التاريخي عند بول ريكور، ص 22.

[43]ينظر: المرجع نفسه، ص 26، 27.

[44]أيمن العتوم، أنا يوسف، ص 15، 16.

[45]المرجع نفسه، ص 26.

[46]المرجع نفسه، ص 79

[47]المرجع نفسه، ص 79.

[48]المرجع نفسه، ص 50

[49]المرجع نفسه، ص 51

[50]المرجع نفسه، ص 65.

[51]المرجع نفسه، ص 65.

[52]ينظر: غاستون باشلار، الماء والأحلام، تر: علي نجيب إبراهيم، تقديم: أدونيس، الطبعة الأولى، المنظمة العربية للترجمة: بيروت، 2007م، ص 14.

[53]غاستون باشلار، الأرض وأحلام الإرادة، ص 34.

[54]ينظر: أيمن العتوم، ص 184، وإسماعيل ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الجزء الثاني، ص 500.

[55]غاستون باشلار، الأرض وأحلام الإرادة، ص 48.

[56]ينظر: المرجع نفسه، ص 49، 50.

[57]ينظر: أيمن العتوم، أنا يوسف، ص ص (5- 14).

[58]فؤاد مخوخ، من نقد العقل إلى هيرمينوطيقا الرموز، الطبعة الأولى، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات: لبنان، 2017، ص 230.

[59] قناة ستيب فيديوغراف على اليوتيب، مجتمع الذئاب مجتمع فاق المجتمعات الإنسانية تنظيما. الأحد 7 أفريل 2024م، الساعة: 3:20 سا.
https://l.facebook.com/l.php?u=https%3A%2F%2Fyoutu.be%2FjZ5aQAnFkEc%3Fsi%3DnYC1hLfuOSPx_Haz%26fbclid%3DIwAR2-3hR8VxgfQC5g_fug7qnr7BxU8YH0zdzAwj83XaBDR6-mA3Uloi0JnEg_aem_AavjQtg5doeU19DrJTq2zwLfo0gmVf96BhkWICcoLIiuOsph-HjbQ6VN7qhM11Te7zdit0mHaFAf3PcNgAPJ00Fc&h=AT0OFd71m6KdmSConedMMbeCCF2Se-PE6R2S6neQQdg6s62qOhqemyEQS--i5PfyR7S1eED9EeKmwktPYm5z19N0z26A-6rgpVysk7gnzJuV95SvdinCBEeWCwzNQpShR5m8iA

[60]ينظر: فؤاد مخوخ، من نقد العقل إلى هيرمينوطيقا الرموز، ص 231.

[61]علما أن فعل السجود كان متعارفا عليه كنوع من أنواع التحية في ذلك الوقت، فكان جائزا في شريعتهم وحرم في شريعتنا، ينظر: إسماعيل ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الجزء الثاني، ص 509، ونخبة من العلماء، التفسير الميسر، الجزء الثاني عشر، ص 247.

[62]أيمن العتوم، أنا يوسف، ص 15.

[63]ينظر: إريك فروم، اللغة المنسية، تر: حسين قبيسي، الطبعة الأولى، المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء، 1995م، ص 50.

[64]المرجع نفسه، ص30.

[65]سيغموند فرويد، الحلم وتأويله، تر: جورج طرابيشي، ط 5، دار الطليعة للطباعة والنشر: بيروت، 1993، ص 66.

[66]كارل غوستاف يونغ، علم النفس التحليلي، ص26.

[67]المرجع نفسه، ص26.